2021

حُسنُ الخُلق

مكارم الأخلاق

مكارم الأخلاق

مكارم الأخلاق

الأخلاق أولا

أبو الحسن الحناوى

مقدمــة

إن الأخلاق الحميدة خصلةٌ فريدةٌ ، وجوهرةٌ ثمينة قلّما تتوافر عند أي شخص ، وليس من الضرورة ربط الأخلاق بالدين حيث أنَّ الجميع مفطورٌ عليها بلا استثناء ، لكن هناك من ينتشل هذه الفضيلة العظيمة من إنسانيته ويفعل كل ما ينقُضها دونما أي جريرة أو إحساس بالذنب ، لاسيما في هذا الزَّمان العجيب الذي انتفت فيه جميعُ معاني الأخلاق السامية إلا ما ندر.

فإن الدين في الأصل حث على حسن الخلق كما تواتر في الكتاب والسنة قال تعالى:﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وقال تعالى:﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. وقال رسول الله ﷺ: » اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن«.

الأخلاق سابقة التَّدين في كل الأحوال ، لأن الأخلاق صفات وسلوك إنسانية قبل ما تكون تعاليم دينية .. لذا بُعث رسول الله ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق .. فكانت هناك أخلاق قبل الإسلام وإنما بُعث النبي ﷺ ليُتمّمها.

التدين هو علاقة بين العبد وربه وتُترجم هذه العلاقة بأداء الفروض التي فرضها الله عليه ، فيُحاسب على القيام بها على وجهها الصحيح و يُعاقب إذا ما قصّر أو أهمل.

أما الأخلاق فهي علاقة البشر مع بعضهم البعض في جميع نواحى الحياة من خلال تعامل وسلوك الفرد على المستوى الداخلى للأسرة والعائلة والمستوى الخارجي في العمل والإحتفالات والمناسبات الإجتماعية واللقاءات .. الخ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

» إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا «

معني الأخلاق

يُعنى بالأخلاق السجايا النفسية التي تصدر عنها السلوك الإنساني .. وهي تمثل الصورة الباطنة للإنسان كما أن الْخَلْق (الوجه والهيئة) يمثل الصورة الظاهرة !

- ومن الأخلاق الحسنة كثيرة وكلها أخلاق قرآنية قررها الله تعالى بأساليب شتى، وأوردها بأحسن الحديث، ودعمها بالقصص القرآني.
- والأصل في الخُلُق أن يكون اختياريًا ، يُكتسب بالتخلّقِ والجهد والمثابرة ؛ ولذلك يُمدحُ به الإنسانُ أو يُذَم ، ويُثابُ عليه أو يُعاقب .. لحديث الحبيب المصطفى ﷺ:

بخلاف الخَلقْ (الخِلقَة) أو الهيئة فهو فطرةٌ مقسومةٌ مُحددةٌ لا مَدخل لأحدٍ فيها ولا اختيار!

- ونؤكد على أن الله تبارك وتعالى قد فطر الإنسان على الخير، وركز في فطرته أصول الأخلاق والفضائل السامية، إلا من انتكست فطرته.

وضعف حسن الخلق عند المتمسك بالدين له أسباب وعوامل من أهمها:

- مفهومه القاصر للتدين
- وطبيعة البيئة التي نشأ فيها
- ومستوى التربية الخاصة التي تلقّاها
- وضعف مستوى العلم الشرعي لديه
- وقلة النُّصح والتوجيه في الوسط الذي يعيش فيه.

لا تلازم بين الدينِ والخُلق

➢ ويجدر بنا أن نقرر بأن الدين أمرٌ والخُلق أمرٌ آخر من حيث اتصاف المؤمن بهما !

ـ فقد يكون المؤمن ذا دين ولكنه ليس له خلق حسن

ـ وقد يكون ذا خلق حسن ولكنه ليس له دين

وهذان الصنفان كثيران في الناس في هذا الزمن.

ـ والصنف الثالث من يجمع بين الدين وحسن الخلق وهذا قليل في الناس

ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ عندما سُئل ما أكثر ما يُدخل النَّاس الجنة قال: » تقوى الله وحسن الخلق«.

❖ فليس بالضرورة أن يكون المتدين يحملُ خُلقاً حسناً كما يظنُّه كثيرٌ من العوام وليس بالضرورة أن يكون المُقصر في الدين سيئ الخلق كما يظنه كثير من المتدينين ..

ـ فلا تلازم بينهما دائماً وإن كان التِّدين الصحيح يحثُّ على حسن الخلق ويحملُ المرء عليه إن كان ذا همة وعزيمة صادقة ..

ـ فقد يكون المؤمن ناسكاً صواماً قواماً ورعاً لكنه سيئ العشرة بخيلا عنيفا لحوحاً عيّاباً كثير الشكاية لا يصفحُ ولا يعرفُ الإحسانَ

ـ وكذلك العكس قد يكون المؤمن متلبساً بالفسق الظاهر لكنه دمث الخلق حسن العشرة كريم النفس كثير الإحسان متغافل متسامح مع الآخرين صادق اللهجة.

خللٌ وسوء فهم

❖ ولما أساء بعض العوام مفهوم العلاقة بين التدين والخلق استقر في أذهانهم أن كل متدين حسن الخلق ثم لما رأوا منه سوء الخلق صاروا:

- يذمون التدين
- ويعيبون المتدينين
- ويُنَفّرون من التمسك بالسنة ..

وهذا خلل في الفهم وقصور في الرؤية وحَيْفٌ في الحكم وإساءة إلى الشرع وسوء ظن بالله لأن ما بدر من المتدين من سلوك سوء الخُلق ليس له ارتباط بالدين ولم يأمره الدين بذلك ..

وإنما هو تقصير من شخصه

وضعفٌ وخَورٌ في تربية نفسه على الفضائل

والذم يعود على نفسه فقط ولا يعم سائر المؤمنين وهو مؤاخذٌ شرعاً ولا تزر وازرة وزر أخرى.

❖ وفي المقابل أساء بعض المتدينين فهم العلاقة بين التدين والخلق فنظروا إلى كل مبتلى بالذنوب الظاهرة بأنه سيئ الخلق وحكموا عليه بضعف الأمانة والكذب والخداع وهذا اتهام بالظن وظلم في الحكم وقد نهى الشرع عن سوء الظن بالمسلمين كما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم: » إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث«. متفق عليه.

ـ فكونه مقصرا في جانب لا يدل على تقصيره في الجوانب الأخرى.

ـ ولا يحل للعامي أن يرد الحق ويترك اتباع الشرع والعمل بالسنة لأجل سوء الخلق من بعض المتدينين لأن الواجب عليه اتباع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا وقد أمر بالدين والخلق.

تخييرُ الربِّ للإنسان

والإنسان يختار خُلُقَه وسلوكَه بما يتناسب مع أصول فطرته ، ومقاومة عوامل التضليل قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾.

ومن السياق ندرك أن الله عزوجل ألهم النفس طريقا الخير والشر جميعاً وعرّفها حالهما وما يؤدي إليه كل منهما، ومكّنها من اختيار أيهما شاءت:

- فيفوز من طهَّر نفسه من الدنايا ونأى بها عن الذنوب والرذائل
- ويخيب من طمس فطرتها وركن الى حب الدنيا وشهواتها.

ـ ولو شاء لمنعه عن فعل الشر قهرًا ، ولكن حكمته اقتضت الاختيار!

ـ والأخلاق هي إحدى الخصائص الكبرى التي تُميّز الإنسان وتجعلُ له معنًى أكبر من حدوده الحيوانية !

مُهمّةُ الأخلاق عظيمة

- ويبين القرآن الكريم مهمة الأخلاق الخطيرة منذ النشأة الأولى حين ذكر توبة أبينا آدم وأنه ثاب إلى خلق رَضِيٍّ من أخلاق الإيمان وهو:
  - ✓ الاعتذار عن الخطأ
  - ✓ والاعتراف به
  - ✓ والانكسار بين يدي مولاه

فقال سيدنا آدم هو وزوجه ، معتذرين ومعترفين ومنكسرين : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾.

فكان لهما في ذلك النجاة والقبول

الإستكبار وشؤم المعصية

ويقارن القرآن الكريم هذا الخلق بخلق مضادٍ له وهو الاستكبار والإباء عن أمر الله عزوجل الذي أهلك إبليس وطرده من رحمة الله تعالى على سعتها .. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

لطيفة : أخطأ إبليس مرةً واحدةً بسبب تكبُّره فعصى ربَّه .. وكان بوسعه التذلل لله وبذل النّدم على ما فعل والتوبة مما فعل والخضوع والخنوع لربّه رجاءَ عفوه وغفرانه .. ولكن سوء خلقه وسيئ سريرته جعلاه يتمادى في غيّه فأتبع المعصيةَ بمعصيةٍ أشدّ من سابقتها فقال:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

فزاده الله عقاباً الى عقابه ، فكان وعيدُ اللهِ لهُ بالعذابِ في جهنم هو وكل من يتبعه ويسلك مسالَكهُ المُهلِكة .. قال الله عزوجل : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

الأخلاق القبيحة عمّت وطمّت

الأخلاق السيئة والتي تأباها الفطرة السليمة ، وتتقزز النفس الصالحة منها ، والتي تفشّت في عصرنا الحالى بصورة بشعة .. ولا أبالغ في ذلك فلينظر أحدنا الى ما وصلنا اليه من تغير في الأحوال فأصبحنا لا نشعر بطعم الحياة ولا حتي بقيمة الموت :

- لم يعد لدينا أصدقاء حقيقيون .. لكن جُلّهم إفتراضيون بوجوهٍ أحياناً وبأقعنة في أغلب الأحيان.
- كيف أصبح الشرطيُ رمزاً للرّشوة بعدما كان ثمثالاً للنّخوة
- العيد صار موعداً للتجارة بعدما كان مَوْسماً للحب والسعادة
- المفاسد كان يرافقها شيئٌ من الخجل فالتحق هذا الخجل بقافلة الهجرة غير الشرعية.
- بعدما كان السرّاقون الفقراء يسرقون الأغنياء ، صار الأغنياء يسلبون أموال الفقراء بالقانون ، ويقتلونهم بالقانون إذا اعترضوا على القانون ، ذلك القانون الذى أسند له سدنة واحدٌ في الجحيم وواحدٌ في قعر الجحيم !

الفطرة السقيمة آفة خُلُقيّة

❖ ولا تنتكسُ الفطرةُ بالشذوذِ الجنسي فقط ولكن إذا ساءت فطرةُ المرء وعطبت ، لحقت به أوصافٌ رديئةٌ وسلوكٌ مشينةٌ من شذوذٍ عقائدى وفكرى ، وتخلّق بخُلق الغدر والخيانة واستباح لنفسه السرقة وتعدي على الأعراض والحقوق ، وأدمن الكذب والتضليل، وممارسة الزور واقتراف الموبقات ، بل وأباح لنفسه فعل الكبائر من أكل الحرام والقتل العمد وكل ذلك إما في إطار القانون أوخارجه فهو أصبح ذو فِطرة سقيمة مريضاً بآفاتٍ خُلقية ونفسية ، لا يُبالى بقيم ولا دين ولا يراعي أدب ولا أخلاق .. أسأل الله لى ولكم الحفظ والسلامة.

الأخلاق سابقة للتدين

❖ إن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء و الصديقين والصالحين، بها تُنال علو الدرجات ، وتُرفع المقامات .. وبالتالى لا شك انها من أهم الصفات التى يجب ان يمتيز بها كل انسان مسلم مؤمن بالله ﷻ وهى جزء لا يتجزا عن العبادات مثل الصلاة والصوم والزكاة.

وقد مدح الله جل وعلا نبيه محمداً ﷺ الذى جُمعت له محامد الأخلاقِ ومحاسن الآداب .. فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على حسن الخلق ، والتّمسُك به ، وجمع بين التقوى وحسن الخلق ، فقال عليه الصلاة والسلام : » أكثر ما يدخل الناس الجنة، تقوى الله وحسن الخلق«.

ـ كما أوصى ﷺ أبا هريرة بوصيةٍ عظيمةٍ فقال: « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق » قال أبو هريرة رضي الله عنه : وما حُسن الخلق يا رسول الله ؟ قال: « تصل مَنْ قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتُعطي من حرمك».

الأخلاق تعدل العبادة

- وقال : » إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم «

- وقد عَدَّ النبي ﷺ حسن الخلق من كمال الإيمان ، فقال صلى الله عليه وسلم : » أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً «

فالأخلاق الحميدة إذاً أحد العبادات التي ينال عليها الانسان الثواب الجزيل والفضل العظيم من الله تعالى ، حيث أن الدعوة الى الأخلاق ومكارم الأخلاق من أهم الدعوات التى خرج بها الدين الاسلامى.

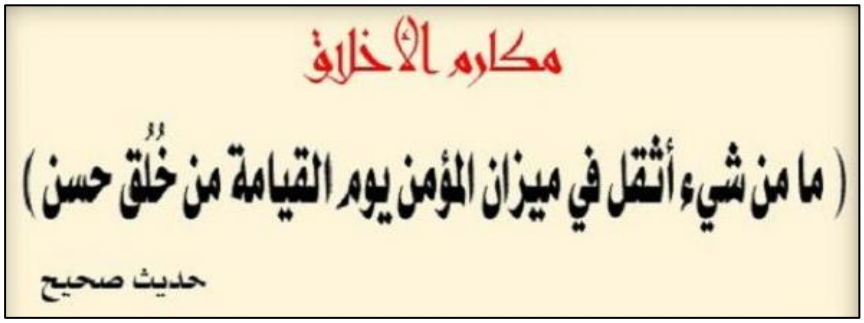

أسبقية الأخلاق على التدين

(الاقتباس بتصرف) ربما يكون عنوان هذه الفقرة ملفتاً للكثير الذين يقدمون العبادة على الأخلاق وحسن المعاملة أو السلوك .. ولكن إذا تتبعنا البناء الأخلاقي في القرآن الكريم ، انتهينا إلى النتائج التالية:

- عدد آيات الأخلاق كبير جدا بالقياس إلى آيات الأحكام ، حيث بلغ عددها 1504، موزعة في مختلف سور القرآن الكريم مكيه ومدنيه!

مما يبين أهمية الأخلاق في المنظومة الإسلامية ، ومن ثم يمكننا فهم الحصر الوارد في الحديث النبوي الشريف: » إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق«.

- أسبقية التربية على العلم ، فلا علم بدون أخلاق ، بل قد يكون العلم وبالا على صاحبه والناس أجمعين ، وكانت وزارات تنشئة الأجيال وتعليمهم تسمي (وزارة التربية والتعليم) لاحظ تقديم التربية على التعليم. ولذلك تمت الإشادة الربانية بخلق الرسول ﷺ ، حتى يكون قدوة في ذلك الأمر، فمدحه بحسن خلقه ولم يمدحه لغزارة وقيمة علمه ﷺ.
- العلم خُلُقُ العَقل ، ذلك أن العقلَ هو خيرُ قائد للإنسان إلى الفضائل، وأمنعُ عاصمٍ له من الرذائل ، شريطة أن يتَّصف العقل بالعلم ، يقول سبحانه: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾.

العبادات وسيلة غايتها الأخلاق

- ارتباط العبادات بالأخلاق ارتباطا وثيقا ، والمتأمل في التكاليف الشرعية يجد أنها وسائل لتحقيق غايات!

فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، و الحج ، كلها وسائل للتخلق بمكارم الأخلاق و الجمع بين كمال الصفات الباطنية والظاهرة.

** فالصلاة وسيلة ، والغاية أن ينتهي الإنسان عن الفحشاء والمنكر، فمن لم تنهه صلاته عن ذلك فقد قصرت به الوسيلة عن بلوغ الغاية ، يقول عزوجل:﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾.

** والصيام وسيلة لبلوغ التقوى ، الائتمار بما أمر الله ، والانتهاء عما نهى عنه يقول ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

** كذلك الزكاة ما هي إلا نوع من التكافل الاجتماعي ، وإحساس الغني بالفقير، وإيجاد التراحم بين الناس ، والتعاطف ، لذا كان المَنُّ بإعطاء الزكاة للفقير مبطلا لها كما قال الحق جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الأذى ﴾.

- ✓ وكذلك جميع الأوامر الإلهية ما هي إلا أخلاقيات كريمة ، إذا سادت المجتمع صلح وصلح أفراده وعاش الناس في سلام ووئام.
- ✓ وكذلك جميع النواهي ما هي إلا نهي عن سوء الخُلق الذي يفسد ما بين الناس ، فيفسد المجتمع وتضيع الحقوق ، وتضمحل القِيم، فتنهار الأمة من داخلها.

البعد الأخلاقي وتوقيت العبادات

كذلك نجد عدم اقتصار البعد الأخلاقي على مضمون العبادات بل تجاوزها إلى التوقيت ، فما حكمة ربط العبادات بأوقات معينة؟؟

الله عزوجل هو بارئ النفس الإنسانية ، وهو العالم بسرها وجهرها، فهي تميل إلى التسويف في العبادات ، وترغب دائما في تأجيل أداء الحقوق ، لذلك أمرها الله سبحانه وتعالى بطاعته لأن في ذلك مصلحة لها، كما أمرها بأداء الفرائض والحقوق في مواقيت معينة خوفاً عليهم من تهاونهم وتسويفهم .. فيهلكوا.

- المنظومة الأخلاقية في الإسلام ليست مضمونا صلداً .. بل هي منهجٌ وطريقةُ عملٍ.

وتحدث القرآن عن مجموعة من القيم كالصدق والإخلاص والمروءة والشجاعة والصبر والثبات وتحمل الشدائد والتضحية والشعور بالواجب والإحساس بالمسؤولية والنجدة والكرم والحرية والعدل والإحسان والمساواة .. وحديثُه عنها يعني :

إعمالَ منهج خيّرٍ في مختلف مجالات الحياة

ومن ثم فإن القرآن الكريم لا يعرض للقيم الأخلاقية إلا من خلال واقعة أو ممارسة، ذلك أن الأخلاق منهج عملٍ وترشيد، ذلك أن من الخصائص المميزة للنظام الأخلاقي الإسلامي الجمع بين النظرية والتطبيق.

(انتهي)

أخوكم في الله /

أبوالحسن الحناوى

فيينا في 20 من ديسمبر 2021